حكايات جدتى

الابن الطيب

بقلم

جلاء شوقى



الابن الطيب

ذات ليلة ممطرة بينما كان شريف يعبر الطريق مسرعا ، إذ رأى امرأة كبيرة السن تمشى فى الطريق الموحل الزلق . والظلام شديد ، تدعو الله أن ينجيها من مصاعب هذه الليلة .

ورأى وجهها فى ضوء البرق الخاطف ، فتعجب كثيرا ، فما الذى أخرج هذه المرأة العجوز من بيتها إلى الطريق فى مثل تلك الليلة ؟ والطريق خال مقفر ، ليس به مكان حصين يمكن أن يلجأ إليه . فما عليه إلا أن يواصل السير حتى يصل إلى مكان أمين يحتمى به ، أو يصل إلى المكان الذى يقصده ، وهو فى أثناء ذلك يؤنب نفسه لأنه سلك طريقاً غير الطريق الذى أعتاد أن يسلكه .

وكان شريف قبل ذلك يسير بسرعة ، ويدوس بقدميه فى الوحل وفى برك الماء الصغيرة التى تتجمع من ماء المطر .

ولكنه الآن لا يستطيع أن يواصل السير ، ويترك العجوز وحدها فى هذا المكان الموحش المخيف .

فاقترب منها وصاح : كيف حالك يا أمى فى هذه الليلة المطيرة ؟

قالت بصوتها الضعيف المرتجف : إنما أنا يا بنى امرأة عجوز فقيرة ومريضة .

فلما اقترب منها أكثر ، وجدها ترتجف بشدة ، وتقع على الأرض ثم تقوم ، وتحاول السير فلا تستطيع ، وقد تلوثت ملابسها وتلوث وجهها ويداها بالوحل .

فقال لها : دعينى أساعدك يا أمى .

ووضع يديه تحت إبطيها ورفعها . فوجد أن ثقلها لا يعدو ثقل طفل صغير ، فحملها على كتفه ومضى بها . وبعد قليل رأى شريف شعاعا خافتا من الضوء ينير المكان وقد كف المطر عن النزول ، وانقشعت الغيوم عن وجه القمر ، فأمكنه أن يرى كوخاً صغيراً على جانب الطريق ، فاتجه إليه والعجوز على كتفه وراح يدق الباب بيده غير الممسكة بالعجوز فلم يلبث الباب أن انفتح ، وظهر شيخ كبير وراح يدقق النظر فى الشاب وفى المرأة العجوزعلى كتفه فرحب بهما وأفسح لهما الطريق ، وقادهما إلى فراش من القش ، ثم راح هو وشريف يساعدان العجوز على أن تخلع ملابسها المبتلة ، وتلبس بدلا منها ملابس جافة أحضرها لها الشيخ من عنده . وأشعل الشيخ نارا لتدفئة



الجو داخل الكوخ ، وخلع شريف ملابسه المبتلة والتف بعباءة من الصوف أحضرها له الشيخ كذلك . ثم نشر الشيخ ملابسهما المبتلة خارج الكوخ ليجففها الهواء .

والتفت الشيخ إلى شريف وسأله : ما الذى أخرجكما من بيتكما فى هذه الليلة الممطرة ؟ قال شريف : إنما خرجت لأبحث عن دواء لأبي قيل إننى سأجده عند طبيب فى المدينة المجاورة .

سأله الشيخ : وهل سبق لك أن ذهبت إلى المدينة المجاورة ؟

قال شريف : ذهبت إليها مع والدى أيام السوق ، ولكن من خلال طريق غير هذا الطريق .

قال الشيخ فى دهشة : ولماذا غيرت الطريق الذى أعتدت عليه هذه المرة يا بنى ؟

قال شريف : غيرته لأنقذ هذه العجوز المسكينة .

ونظر الشيخ إلى العجوز وسألها : وأنت ما الذى أخرجك من بيتك فى هذه الليلة الممطرة ؟

قالت العجوز : خرجت لأحضر بعض الجوز لابنى من الغابة فى جوار تلك المدينة .

هز الشيخ رأسه ، ثم ابتعد عنهما وتركهما ينعمان بقسط من النوم والراحة ، إلى أن تجف ملابسهما . وعندما استيقظا من نومهما فى صباح اليوم التالى ، لم يجدا أثراً للشيخ الكبير ولا للكوخ ، ووجدا ملابسهما وقد جفت . كما وجدا إناء من الفخار به كيسان ، فى أحد الكيسين مسحوق ، وفى الكيس الآخر بعض الجوز ، وتساءلا فى نفس اللحظة : ترى من يكون ذلك الشيخ الوقور ؟

وسرعان ما وجدا فى طيات ملابسهما ورقة كتب فيها :

« يأيها الشاب الطيب ، ويأيتها العجوز الطيبة . إنكما تستحقان العون والمساعدة . ولهذا فلتأخذ العجوز كيس الجوز حتى لا تتعب أكثر مما تعبت فى إحضار الجوز لابنها من الغابة ، وليأخذ الشاب هذا المسحوق لابيه المريض . ولكن لا تسألا من أنا ؟

ولكن الأعجب من ذلك أن العجوز عندما وصلت إلى بيتها وجدت ابنها معلقاً وقد جلده شيخ غريب مائة جلدة عقاباً له على أن مكث فى البيت مرتاحا ، وأرسل أمه العجوز فى هذا الجو الممطر ، لتحضر له بعض الجوز .

فما أن دخلت الأم العجوز البيت ، حتى راح ابنها يناديها ويقول لها : اغفرى لى ذنبى يا أمى ، فقد كان تصرفى قبيحاً .. سوف أصحن لك الجوز وأمزجه بالسكر والدقيق ، وأطعمك إياه بيدى ، وسوف أقوم على رعايتك وخدمتك قدر ما أستطيع ، ولن أكرر ما جرى منى فحق الأمهات على أبنائهن أن ينعمن بالراحة والتقدير . فسامحينى يا أمى ، سامحينى .

أما شريف فقد وجد أباه متكئاً على سريره ، فقال له حين رآه : بارك الله فيك يا بنىّ ، فأنت ابن بار ، خرجت فى جو ممطر عاصف لتحضر لى الدواء الذى وصفه الطبيب . وقد مر بى شيخ طيب ، وسقانى جرعة من الدواء تحسنت على أثرها صحتى . وقد ترك عندى أمانة لك كيس النقود هذا لتستعين به .

أرجوك أنقذنى

فى قرية فقيرة تقع عند أطراف الغابة ، خرج الصبى مسرور من بيته الصغير إلى الغابة ، يجمع بعض الثمار للطعام . لاحظ مسرور أن الأشجار كلها بلا ثمار ، فظل يمشى ولا يدرى إلى أين تقوده قدماه ، يبحث عن ثمار يأكلها حتى هبط الظلام . ولم يفق إلى نفسه حتى اصطدم بشجرة ضخمة ، وتنبه إلى ما حوله . فراح يحدث نفسه : إنه وسط مكان لم يدخله من قبل كما لم يعثر بعد على أية ثمار .. فماذا جرى ؟

ـ لقد تعبت .. لكن علىَّ أن أخرج من هذه الغابة ، ولكن كيف ؟ والظلام شديد ، فلابد أن أنتظر طلوع ضوء النهار حتى أجد طريقى . وربما أجد شيئاً فى هذا المكان آكله أسد به رمقى .

فجأة سمع مسرور صوت استغاثة يأتى من تحت قدميه . وأطلَّ فإذا بحفرة عميقة ينطلق الصوت من داخلها . فحمد الله كثيرا حيث لم يقع فيها . كان صاحب الصوت يقول :

أنقذني بالله عليك .. النجدة يا من تسمعني ..النجدة النجدة !

لم ير مسرور شيئاً لأن الحفرة كانت شديدة الظلام ، فقال في نفسه : ما هذا ؟

إنه صوت إنسان : لابد أنه وقع في حفرة حفرها الصيادون

ومرة أخرى عاد الصوت يقول : أخرجوني من هذه الحفرة ، وسأعطيكم مائة قطعة ذهبية .

لم يصدق مسرور ما يسمعه ، فأسرع بإحضار غصن شجرة طويل ، ومد يده فأدلاه إلى داخل الحفرة وهو يقول : تعلّق بهذا يارجل . سأسحبك من الحضرة بشرط أن تفي بوعدك .

سحب مسرور الغصن بقوة ، بعد أن شعر بثقل من يتعلق به ، وراح يتراجع إلى الخلف في جهد كبير ، فلابد أن من يتعلق بالغصن كان ثقيلاً . وفجأة انطلقت من فمه صرخة هائلة ، عندما رأى ذئباً كبيراً يقفز من داخل الحفرة وينطلق إلى أعماق الغابة ، فترك مسررو على الفور فرع الشجرة يسقط من يده ، غير مصدق لما رآه .

تأمل مسرور ما حدث واليأس يملأ قلبه وقال : ما هذا ياربي ؟

حتى الذى وعدنى بالمال كان ذئبا ؟

ثم استدار ليبتعد من هذا المكان . ولكنه سمع مرة أخرى صوت إنسان محبوس فى الحفرة : أرجوك يا سيدى لا تتركنى هنا . أنقذنى وسوف أعطيك مائتى قطعة ذهبية .

دهش مسرور وقال فى نفسه : مائتى قطعة ذهبية تستحق المحاولة . ولكن من الذى خرج من الحفرة ومن الذى فيها ؟

ومرة أخرى أسرع مسرور وأحضر فرع الشجرة ومده إلى داخل الحفرة . فلما شعر بثقل الفرع راح يسحبه وهو يشعر أن هناك من تعلق به . وكانت المفاجأة هذه المرة أشد من المفاجأة الأولى ، فقد خرج من الحفرة قرد كبير، وبمجرد خروجه قفز إلى أعلى الأشجار واختفى .

ومضى مسرور فى طريقه يضرب الأرض بقدميه غاضبا ، ليبتعد عن هذا المكان العجيب .

إلا أنه توقف من جديد عندما وصلت إلى مسامعه صرخات : أيها الإنسان الشجاع أنقذنى .. أنقذنى وسوف أمنحك ثروتى كلها .



التفت مسرور وهو يقول : صوت من هذا ؟ من أنت ؟

قال الصوت : أنا أغنى أغنياء هذه البلاد ، وعندى ثروة كبيرة سأهبها لك إن أنقذتنى .

وأسرع يبحث عن فرع الشجرة ، ثم مد به يده إلى داخل الحفرة . فلما تأكد أن هناك من تعلق به راح يسحبه بكل قوته ، وهو يتراجع للخلف فى جهد كبير . وفى هذه المرة ظهر له رجل يتعلق بفرع الشجرة .

وما إن خرج من الحفرة حتى احتضن مسروراً وراح يشكره . سر مسرور هذه المرة لأنه وجد أمامه إنساناً حقاً ، وعليه أن يفى بوعده . وقف مسرور يحلم بأنه أصبح الآن يملك قصراً وحديقة وحقولاً ، ولكنه عقد العزم فى نفسه على أن يقتسم الثروة مع الرجل صاحبها ، ويكفيه هو نصف الثروة فقط .

سأل مسرور : متى تنفذ وعدك ، وأمتلك ثروتك ياسيدى ؟

أجاب الرجل مندهشاً : ماذا ؟ آه .. غداً ..غداً بالطبع .

سأذهب الآن وعليك أن تحضر لمقابلتي غداً في قصري ذي اللون الأخضر بالمدينة .

ومشى الرجل وهو يفكر .. لقد قطع هذا الوعد على نفسه بتأثير الخوف والرعب في الحفرة .. حفرة الموت ، ولكن ما الذي يدعوه الآن لأن يتنازل عن ثروته وقد خرج من الحفرة سالماً ،

نام مسرور تلك الليلة غارقاً في أحلام عريضة ..

وفي الصباح انطلق إلى القصر الأخضر ، وهناك استقبله الرجل وقال له : مرحباً بك يامسرور ! في الحقيقة عندما كنت في الحفرة ، وكان الموت يتهددني وعدتك بثروتي كلها . ولكني الآن وقد عدت سالماً سأعطيك أجراً عشرين قطعة ذهبية فقط .

رفض مسرور أن يمد يده وقال : لا يا سيدي ، لقد وعدتني وعليك أن تفي بوعدك ، وأنا لا أطمع في ثروتك كلها ، سوف أترك لك نصفها .

قال الرجل الثري في سخرية : ما هذا الكرم يا مسرور ؟

ثم نادى الرجل خدمه وقال : ألقوا بهذا الرجل خارج القصر .

هتف مسرور وهو يُلقى خارج ا لقصر ، وقال : سألجأ إلى القاضى لآخذ حقى منك .

وأمام القاضى مثل الرجل الثرى ومسرور ، وقال الثرى : أنا لا أنكر أن مسروراً أنقذ حياتى ، ولكن أيعنى هذا أن أعطيه ثروتى كلها ، أنا لم أعده بشىء مثل هذا .

وعليه سوف أعطيه عشرين قطعة ذهبية مكافأة له راح القاضى يفكر ويزن الأمور ، فلم يكن هناك شاهد مع مسرور يشهد على ما وعد به الرجل الثرى ، فقال: لا بأس أيها الرجل ، ولكن ضاعف المبلغ واجعله أربعين قطعة ذهبية .

لم يكن أمام مسرور إلا القبول ، فأخذ المبلغ وفتح كفيه ونظر إلى السماء وقال : اشهد يارب على ما جرى ، وخذ لى حقى من هذا الرجل ، والحمد لله على كل حال ..

أخذ مسرور الأربعين قطعة ذهبية وبدأ بها تجارة صغيرة ، فكانت فاتحة خير له فضاعفها الله مرات ومرات

وذات يوم جاءت سحابة كبيرة وألقت بظلالها على مزارع الرجل الثرى ، وسمعت صيحة خوف من المزارعين فى حقوله تقول : الجراد .. الجراد .. !

وبدأت المقاومة تشتد ضد غارة الجراد .

وما انتهت غارة الجراد إلا وقد جلبت البوار لحقول الرجل الثرى وخسر معظم أمواله . فتذكر دعوة مسرور عليه ، وكيف صار حاله ؟ فندم أشد الندم لأنه لم يف بما وعد مسروراً به ، وأنكر ما قاله .